متغيرات الحزن في مجموعة (غزليات عبد الأمير الحصيري)

قـــراءة نقـــدية

الدكتور هاني إبراهيم عاشور

كلية الاداب – جامعة بغداد

ولد الشاعر عبد الامير الحصيري في مدينة النجف الاشـــرف عـــام ١٩٤٢ وقضى معظم طفولته فيها قبل ان ينتقل الى بغداد عام ١٩٥٨ ليقضي ريعان شـــبابه فيها حتى وافته المنية في شباط عام ١٩٧٨ وهو ابن ٣٦ ســـنة ، وفـــي مرحلـــة طفولته في النجف عرف الحصيري الشعر في تلك المدينة التي كانـــت أحـــد منـــابع الشعر الأصيل والفقه في العراق ، فانعكس ذلك عليه حين تعلم نظم الشعر في وقـــت مبكر مستفيدا من شعراء بارزين سبقوه من أبناء مدينتـــه وأبـــدعوا فـــي القصـــيدة الكلاسيكية أمثال الجواهري ومصطفى جمال الدين وغيرهم ، وما ان انتقل الى بغداد بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، حتى عاش تناقضات المدينة الكبيرة بكل مـــا تحملـــه المدن الكبيرة من اختلافات اجتماعية واقتصادية وسياسية ، لكنه اختار طريق البحث عن الملذات فادمن شرب الخمرة التي كانت احد اسباب وفاتـــه فـــي ســـن مبكـــرة ، " وربما كان يتمرد على خجله عبر وسيلتين الشعر والخمرة "[١] ، وظهـــرت عليـــه آثار التصعلك وهو يعيش تفاصيل المدينة الكبيرة التي تركت بصماتها في شعره بين رافض لحياة يبدو انه قد اجبر على قبولها ، وبين قبول مـــؤلم جســـده فـــي شـــعره بخلجات أنين وتمرد على واقع لم يتمكن الانصياع له .

وفي بغداد كتب الحصيري اكثر شعره الذي ضمته دواوين عديـــدة صـــغيرة صدرت له قبل ان يفارق الحياة منها (سبات النار) و (انا الشـــريد) و (اشـــرعة الجحيم) و (بيارق الآتين) ، (مذكرت عروة بـــن الـــورد) ، و (تشـــرين يقـــرع الاجراس) ، و(معلقة بغداد) ، و(تموز يبتكر الشمس) ، و مجموعـــة (غزليـــات

عبد الامير الحصيري) التي صدرت بعد وفاته ، والتي أعدها وقدمها الكاتب والناقد الراحل عزيز السيد جاسم والذي اخترناه مادة للبحث .

وقد ترك الشاعر عبد الامير الحصيري بعد وفاته شعرا منشورا في عدد من الصحف والمجلات ، مثلما ترك شعرا لم يتمكن احد من جمعه وقد نشر منه قرابة عشرين قصيدة الشاعر عبد المنعم حمندي في العدد الخاص عن الحصيري الذي أصدرته مجلة الأقلام عام ١٩٨٥ ، بينما سرق شعراء آخرون كثيرا من شعره ، وربما آثر الحصيري نفسه ان يمنحه لغيره مقابل بعض المال الذي يساعده على تجاوز مصاعب الحياة " فقد تآمر عليه البعض من الذين استغلوا بؤسه المادي ، فاشتروا بعض أوراقه الشعرية ، وتصرفوا بها ، وكان المرحوم في ذلك راضيا ، فقد كانت لقمة غذاء يتزود بها، وشراب تبلغ به حاجة قصوى "[٢] ، وهو ما ترك شكوكا كبيرة لدى بعض النقاد من أن شعرا كثيرا للحصيري ذهب دون ان يتمكن أحد من جمعه ، الا ان جهودا لزميل الشاعر الحصيري جمعت بعض شعره غير المنشور لإصداره في الأردن قام بها الشاعر عبد المنعم حمندي وتحت عنوان (أمير صعاليك بغداد) اطلعت على مخطوطتها قبل النشر .

و (غزليات عبد الامير الحصيري) موضوع البحث التي جمعها واعدها وقدم لها الكاتب والناقد العراقي الراحل عزيز السيد جاسم الذي كان قريبا من الحصيري وعارفا بتفاصيل حياته والتي صدرت عام ١٩٨٨ قد ضمت (٧٨) قصيدة تعد من قصائده المهمة وهي تستحق الدراسة بوصفها صورة لشعره .

لقد آثر المرحوم الناقد عزيز السيد جاسم ان يطلق على مجموعة قصائد الحصيري التي جمعها تحت اسم (غزليات عبد الامير الحصيري) على الرغم من ان القصائد التي ضمتها المجموعة لا يمكن وصفها بالغزلية بل هي اقرب الى الوجدانيات والشعر الذاتي ، وربما ذهبت بعض القصائد في منحى آخر لا يمت للغزل بصلة .

ولكن يبدو ان عزيز السيد جاسم اختار هذا العنوان لامرين ، ألاول : ان لغة القصائد تكاد تكون قريبة من لغة الغزل بمفرداتها ومن قاموس الغزل في الشعر

العربي الكلاسيكي فهي اقرب اللغة الذاتية منها الى اللغة الخطابية المباشرة التي اتسم بها بعض قصائد الحصيري في المناسبات ، اذ لا مجال لضم قصيدة في رثاء الشاعر الكبير السياب ، او قصيدة في عيد الجيش او عيد العمال ، او خواطر لفلسطين الى مجموعة غزلية ، كما ليس من المعروف عن الحصيري انه عاش تجربة عاطفية في حياته ، وانما حاول مثل كل الشعراء ان يقلد مسيرة سابقيه في كتابة الغزل سيما وانه كتب شعره في مرحلة الشباب ، الامر الذي يقودنا الى ضرورة تفسير هذه الظاهرة في شعره ، فالشاعر في كثير من قصائده كان يخاطب ذاته او واقعه او الطبيعة حوله ما يدفع للشعور بانه يتغزل بامرأة ، او يحيل لغته الى قاموس المفردات الغزلية العربي الضخم لينهل منه ، ما يدفع الى الظن انه حاول ان يصنع قناعا للغته معلنا تمرده من خلال لغة الغزل التي يفجر فيها خلجاته الذاتية، ومثل هذا شأن كثير من الشعراء التقليديين الذين احترفوا كتابة الشعر العمودي .

اما الامر الثاني : فقد يفسر اختيار الناقد عزيز السيد جاسم لاسم المجموعة (غزليات عبد الامير الحصيري) للظروف السياسية التي كان يمر بها العراق والضغط الذي كان يعيش تحته بعض النقاد والكتاب ، ما يدفعه الى عدم الإشارة الى ان شعر هذه المجموعة يعبر عن التمرد على الواقع ورفضه ، وقد أشار معد المجموعة الى ذلك بإشارات غير مباشرة في مقدمته ، اذ " تتشرب اغلب قصائد الحصيري صورة الحزن ، والاسى ، لان الحزن كان قدره النهائي "(٣) وفي هذه العبارة وغيرها الكثير في مقدمة المعد ما يدل على إدراكه بان في المجموعة ما يجعلها بعيدة عن عنوانها الذي صدرت به ، لكنه آثر اختيار هذا العنوان لكي لا تتحول المجموعة إلى إثارة لفكرة كانت الأوضاع السياسية في العراق آنذاك لاتنسجم معها .

ومهما يكن الأمر بشأن عنوان المجموعة أو الديوان فان " أسماء مجاميع الشعر في ادبنا الحديث لا تعني شيئا ، فالاختيار اكثر ما يقع اعتباطا "(٤)

في غزليات عبد الأمير الحصيري ثمة اختلاف واضح بين لغة القصائد وموسيقاها ، تمثل اختلاف وتقلبات الشاعر التي عرف بها ، فبعض قصائد

المجموعة كتبت بين عامي ١٩٦٤ كما في قصيدة (هيهات يا وطني) و١٩٧٣ كما في قصيدة (اصرار) ، فيما لم يشر معد ومقدم المجموعة لتواريخ عشرات القصائد الأخرى التي كتبت بين هذين التأريخين ، ولعل ذلك ما يبرر التغيرات التي حصلت عند الشاعر خلال سنوات كتابته القصائد ، سواء من ناحية التطور ، او من ناحية التغيرات النفسية التي تعرض لها ، والتي تركت بصماتها واضحة في متغيرات لغته وموسيقى قصائده ، ففيما ضمت المجموعة قصائد طويلة امتاز بها اغلب شعر الحصيري ، ضمت قصائد قصيرة ، الا ان عدم ذكر تواريخ نظمها أضاع فرصة لقراءة أسباب اختياره نظم القصائد الطويلة و ابرز التأثيرات في ذلك وقراءة تطور شعره ، فقد اختار للقصائد الطويلة أوزانا ثقيلة تعبر عن يأسه وتمنحه فرصة الإغراق في التعبير عن خلجاته ، فجاءت موضوعاتها مجسدة لمعاناته ، فكما في قصيدته (لا فانوس في الحانة) التي جاءت على بحر الخفيف التام يبث الحصيري نجواه عبر (٥٩) بيتا ويقول فيها(٥)

لغة الحلم مهبطي وتخومي　　سفر البحر في شراع الجحيم

ونهاري لا يستحم بعين　　نحت الريح هدبها من غيوم

لست ادري اغفلة الليل ميلادي المعنّى أم انتصار الهموم

وتتكرر اختيارات الشاعر الموسيقية على بحر الخفيف التام الذي يتمكن من خلاله التعبير عن هواجسه وكأنه يبعث أنينا من خلال تفعيلات البحر ، ففي قصيدته (دعاء على هيكل النار الخالد) التي جاءت بـ (١٤٢) بيتا ، ينفث الحصيري أسراره ولواعجه في مطولة كانت واحدة من مطولاته التي عرف في أجادتها عبر الكثير من قصائده في دواوينه الأخرى ، ويقول فيها(٦)

هل إلى سفحك الأغنّ سبيل　　يا ضحى فيه سافر المستحيل

يا سماء لم يغمض الليل جفنيها ليفتضها البريق الطليل

ألجمت طائف الكواكب أن يفضي إليها بما تسرّ النخيل

لكن الحصيري حين يكتب شعرا يشرق في طياته أمل يختار بحورا ذات إيقاع سريع وغنائية واضحة كما في بحر الكامل الذي كتب فيه أحد قصائده التي تبدو استثنائية في سياق شعره الكثير المليء بالحزن ، ففي قصيدة (شجرة العام الجديد) وجد في وزن الكامل فسحة من التنويع الموسيقي الذي فرض عليه لغة اكثر حيادية وبهجة فهو يقول(١٠) :

الفجر يفتح جفنه جذلا　　ويورد الأرواح والمقلا

تتحضن الارحاب فضته　　وتذوب فوق نخيلها حللا

وتفيض شلالا بغمرته　　يغدو صفاء الكون مغتسلا

يهب الرياض نعيم جدتها　　وشباب عطر فوقها ثملا

والملاحظ هنا ان قاموس الشاعر وموسيقاه تتغير تبعا لموضوعه ، وانه حين يفقد حزنه ويبتعد عن همومه ، يخضع قصيدته للتغيير أيضا ، فهو في هذه القصيدة التي تقارب الـ (٦٠) بيتا يختار عدة قواف دون الخروج من البحر الذي اختاره ، فبعد عشرة أبيات يتخذ الشاعر قافية جديدة ويكون (الميم) فيها حرف الروي فيقول(١١) :

عام تولى يحمل الألما　　بجناحه والبرء والسقما

كم شد أشرعة النجوم على　　سفن الرحيل وغادر الظلما

ثم ما يلبث ان يغير القافية مرة أخرى وبحرف روي جديد هو (النون) فيقول(١٢) :

عام مضى بالرعد والشجن　　متمشيا بهياكل الزمن

أسدى يدا بالخير وانصرفت　　أخرى تصب الأرض بالمحن

وهكذا تتغير القافية في هذه القصيدة بعد كل عشرة أبيات وكأن غياب الحزن عنها جعل الشاعر يتغير في لغته ويتنقل بين أنغام الحياة الأكبر التي انعكست في

القصيدة ، ولم يتشبث في ملازمة القافية وتدوير الأبيات كما في قصائده ذات الحس الحزين التي يبدو فيها انه لا يريد مفارقة حزنه وبث لواعجه فيها وان طالت .

ويبدو ان الحصيري الذي يتغير بوضوح بعيدا عن مفردات القبر والموت انما يستمد روحه الجديدة في تلك النصوص من قدرته الفنية التي تفجر نشوته وليس من متغيرات الحياة التي لم تشهد تحسنا في وضعه النفسي ، وبحسب تعبير بودلير فان (نشوة الفن اكثر قدرة من اية نشوة اخرى على حجب أهوال الهاوية وان العبقرية قادرة على تمثيل المهزلة على حافة القبر بصوت يمنعها من رؤية القبر ، وهي الضائعة في فردوس ، نافية فكرة القبر والتدمير معا "[١٣].

والمتغير في شعر الحصيري من هاوية الحزن الى مساحة اكبر من النفاذ إلى عالم الحب والجمال يبدو واضحا في مقطوعاته وقصائده القصيرة التي غالبا ، ما تتغير مفرداتها وبحورها وفقا لتغير موضوعاتها ، كما يقول في قصيدة (عابرة) التي جاءت بـ ١٥ بيتا من مجزوء الرمل ذي الإيقاع الراقص الغنائي السريع[١٤]:

سكرت كاسي لمّا　شربت من نظراتك

وسبتها خلقها السمح تواشيح التفاتك

فرمت كفيّ كي تأوي لدنيا لثماتك

فتشطت لتحاكي من هيام ضحكاتك

وتتكرر هذه الظاهرة في قصائد أخرى كما قصيدة (ابتعاد) التي جاءت بـ ١١ بيتا على بحر المجتث وهي تحمل في طياتها غنائية عليها فرضها الوزن الشعري والمفردات البسيطة ويقول فيها[١٥] :

علام تنأى وتجفو　وخافقي لك وقف

وكل أحلام روحي　على رؤاك ترف

متى تلبي ندائي　يامن له الوصف وصف

وفي اغلب قصائد الحصيري التي تأتي على شكل مقطوعات او قصائد قصيرة تتغير لغته الشعرية ومفرداته وموسيقاه تبعا لموضوعاته التي غالبا من تكون في مثل تلك القصائد ، معبرة عن خروج الشاعر من مأزقه النفسي وجحيم ذاته الذي يرافقه في مطولاته ، وكأنه يريد ان يوحي بذلك من غير قصد ان مساحة الفرح في حياته قصيرة وضئيلة كما في حجم القصائد التي يكتبها على هذه الشاكلة .

وابرز ما يميز مجموعة غزليات الحصيري ان اغلب القصائد المعبرة عن حزنه جاء على بحر الخفيف ، حيث تثير تفعيلة (فاعلاتن) أنينا خاصا يفضي بالشاعر الى مكامن أسراره ، الى حد الالتصاق بها وعدم مفارقتها ، وهو ما يفسر طول القصائد التي جاءت على هذا البحر .

الهوامش :

١- (غزليات عبد الأمير الحصيري) إعداد وتقديم عزيز السيد جاسم ، دار الشؤون الثقافية – بغداد ١٩٨٨ ص ١٣ .

٢- المصدر نفسه ص ٦ .

٣- المصدر نفسه ص ٢٣ .

٤- (لغة الشعر بين جيلين) الدكتور إبراهيم السامرائي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت ط٢ ، ١٩٨٠ ، ص١٨٩ .

٥- ينظر غزليات عبد الأمير الحصيري ص ١٣١.

٦- ينظر المصدر نفسه ص ١٥٠ .

٧- (الشعر الحر في العراق منذ نشأته حتى عام ٩٥٨)، يوسف الصائغ ص١٢٥.

٨- ينظر (غزليات عبد الامير الحصيري) ص ١٦٠ .

٩- ينظر المصدر نفسه ص ١٧٨.

١٠- ينظر المصدر نفسه ص١٤٤.

١١- ينظر المصدر نفسه ص١٤٦ .

١٢- ينظر المصدر نفسه ص١٤٧ .

١٣- (أزهار الشر) بودلير ، ترجمة خليل الخوري ، بغداد ١٩٩٨ ص ٣٣.

١٤- ينظر (غزليات عبد الامير الحصيري) ص٥٥ .

١٥- ينظر المصدر نفسه ص٤٦ .